الفكر البلاغي للجاحظ في "البيان والتبيين"
بين الموافقة و الاختصاص
باب البيان نموذجاً و تحليلا

إعداد

د. رندة عبد اللطيف أحمد تمساح

أستاذ البلاغة والنقد الأدبى المساعد
كلية العلوم والآداب ـ جامعة الملك خالد ـ بسراة عبيد

الفكر البلاغي للجاحظ في "البيان والتبيين"
بين الموافقة والاختصاص، باب البيان نموذجًا وتحليلا

رندة عبد اللطيف أحمد تمساح
القسم: البلاغة والنقد الأدبي، كلية العلوم والآداب، جامعة الملك خالد بسراة عبيدة، السعودية.
(البريد الإلكتروني):rtomsah@kku.edu.sa

ملخص:
هدف البحث إلى بيان الفكر البلاغي للجاحظ في كتابه البيان والتبيين، بدراسة مباحث علم البيان. وقد لاقت مؤلفات الجاحظ عناية عظيمة من العلماء من حيث دراستها من مختلف الجوانب. وتبرز إشكالية البحث في السعي لمعرفة مفهوم علم البيان ومباحثه عند الجاحظ ومدى موافقته أو مخالفته لجمهور علماء البلاغة. واعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي ومن أهم نتائجه إبرازه لمخالفة الجاحظ علماء البلاغة في تعريفه لبعض مباحث علم البيان ويرجع ذلك لعدم تقيده بالمفهوم الاصطلاحي المحدد لتلك المباحث، وربما كان لروح العصر الذي عاش فيه الجاحظ أثر في ذلك، كما لم يقم الجاحظ بتعريف التشبيه، ولكن ما ذكره عنه يدل على اتفاق مع تعريف جمهور العلماء له. وأما قضية المجاز في رأي الجاحظ فهي تختص بنقل المعنى من معناه الأصلي إلى معنى بعيد لا يدرك إلا من وراء الألفاظ. وقد أشار الجاحظ في تعريفه للاستعارة إلى أنها تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه، ولم يعرّف الجاحظ الكناية لكن ما أورده من شواهد تدل على أنه لا يخالف مذهب جمهور البلاغيين في تعريفها، وهي إخفاء المعنى المقصود وإظهار معنى آخر، ومن أبرز توصيات البحث ضرورة العناية بتحقيق تراث الجاحظ الأدبي والبلاغي، المتمثل في مؤلفاته المختلفة وإلحاق هذه الدراسة بدراسات أخرى، تتناول جوانب علوم البلاغة الأخرى (البديع والمعاني) في كتاب البيان والتبيين والوقوف على كتب الجاحظ وتراثه المتنوع في عدد من الأنساق المعرفية الأخرى.

الكلمات المفتاحية: البلاغة، البيان، الجاحظ، الاختصاص، الموافقة.

The rhetorical thought of protruding in the "statement and evidence" between consent and competence, the door of the statement as a model and an analysis

Randa AbdulLatif Ahmed Crocodile
Section: Rhetoric and Literary Criticism, Faculty of Science and Literature, King Khalid University with Sara Obeida, Saudi Arabia.
E-mail: rtomsah@kku.edu.sa

Abstract:

The aim of the research is to clarify the rhetorical thought of the protagonist in his book Al-Bayan and Al-Tabiyyin by studying the science of statement science. Al-Jahez literature has found great care from scholars in terms of studying it from various aspects. Rhetoric scientists and research based on the descriptive analytical method of the most important results of research: rhetoric did not agree rhetoric in the definition of some of the topics of the statement of science due to lack of adherence to the terminological concept specific to those detectives and perhaps the spirit of the era in which he lived in it، as did not protrude P analogy، but what he said about him the same definition of the public scientists him، and metaphor in the opinion of the bigeye is the transfer of meaning from its original meaning to a distant meaning is only aware of behind the words، and the bigeye in his definition of metaphor as the name of the name of the other if his place. The protagonist defines the metaphor، but the evidence that he mentioned does not contradict the doctrine of the rhetoric audience in its definition، namely the concealment of the intended meaning and show another meaning. Science Other language (Budaiya and meanings) in the book statement. Also، we need to study the books of Al-Jahiz and his diverse heritage in a number of other knowledge formats.

Keywords: Rhetoric; al-Bayan، Jahez; Uniqueness; Agreement.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، و بعد :

فعلم البيان يشمل المسائل التي بمعرفتها يعرف وضوح الدلالة على المراد؛ لأن الغرض من الكلام التعبير عما في الفكر ومشاعر النفس وأحاسيسها بألفاظ دالة على ما يريد المتكلم التعبير عنه، والكلمات رموز اصطلاحية في الأوضاع اللغوية الأولى، وفي الاستعمالات اللاحقة للأوضاع اللغوية والناجمة عن استخدام الناس لمختلف الأساليب والحيل الكلامية القائمة على التوسع في دلالات الألفاظ، والانتقال بها من الحسيات إلى ما وراءها، حتى العقليات المجردة.

ويعد كتاب "البيان والتبيين" من أواخر كتب الجاحظ تأليفًا، وهو أحد أركان الأدب العربي، كشف فيه مؤلفه عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ سحر البيان العربي في مجالي الكتابة والخطابة في حديثه المستفيض عن فرسان القلم واللسان، وتصدى فيه لأولى حركات الشعوبية، مفندا آراء دعاتها، كاشفا زيف كل شبهاتها. والمتأمل لهذا الكتاب يجد أن المؤلف ذكر فيه كثيرا من الشواهد البلاغية التي تحتاج للدراسة التحليل، ويمكن القول إن كتاب "البيان والتبيين" جاء استجابة لاهتمام العرب في ذلك العصر بصناعة الكلام؛ لأن الكلام هو الوسيلة المثلى لنشر المبادىء السياسية والعقائد الدينية في زمن كثرت فيه المذاهب واشتد الصراع بين زعمائها واحتدم الجدل بين

أنصارها. فصارت الحاجة ماسة إلى التمرس بالخطابة والمناظرة وإلى وضع أصول لها تتعلم أو يرجع إليها.و هذا البحث المعنون بـ"الفكر البلاغي للجاحظ في "البيان والتبيين" بين الموافقة و الاختصاص: باب البيان نموذجا و تحليلا" محاولة جادة لكشف خصائص البيان العربي في نموذج مشهود و عقد فريد من الإبداع العربي في عصر من عصوره الزاهية.

- **أهمية البحث**:

تظهر الأهمية والفائدة من هذا البحث فيما يأتي:

ـ التعرف على أهمية الدرس البلاغي في فهم نصوص الوحي من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وفي فهم كلام العرب شعره ونثره .

ـ التعرف على مكونات الدرس البلاغي، والعلوم التي تندرج تحت هذا الدرس البلاغي

ـ التمييز بين علوم البلاغة بدراسة علم البيان ومعرفة ما يختص به من خصائص ومميزات تميزه عن بقية علوم البلاغة الأخرى .

- **مشكلة البحث**:

تبرز مشكلة البحث في السعى لمعرفة مفهوم علم البيان ومباحثه المنثورة في كتاب البيان والتبيين ومدى موافقة الجاحظ أو مخالفته لجمهور علماء البلاغة عن طريق ما أورده من نصوص وشواهد وأقوال في هذا العلم.

- **أهداف البحث** :

يهدف هذا البحث إلى تحقيق عدة أهداف، هي:

١/ وصف كتاب البيان والتبيين وبيان قيمته الأدبية والبلاغية .

٢/ التعريف بعلم البيان وبيان مباحثه وأثرها في تأدية المعاني .

٣/ الوقوف على سمات فكر الجاحظ البلاغي وملامحه فيما ورد في باب البيان .

- **منهج البحث**:

يقوم هذا البحث على المنهج الوصفي الذي يستند إلى الوصف والتحليل و رصد للنماذج المعضدة للظاهرة الأدبية موضع الاهتمام و المناقشة.

- **هيكل البحث** :

اشتمل البحث على مقدمة ومبحثين وخاتمة، جاءت على هذا النحوالآتي:

- **مقدمة**:

وتتضمن كلا من: أهمية البحث، ومشكلته، وأهدافه، و منهجه، و هيكله.

- **المبحث الأول**: الجاحظ و كتابه"البيان والتبيين"و مصادره في علوم البلاغة. و فيه مطلبان :

. **المطلب الأول** : الجاحظ سيرة و حياة.

. **المطلب الثاني** : وصف كتاب البيان والتبيين وبيان منهج الجاحظ فيه .

- **المبحث الثاني**: الفكر البلاغي و مباحثه في كتاب البيان والتبيين. وفيه مطلبان:

- **المطلب الأول** : علم البيان ومنزلته.
- **المطلب الثاني**: مباحث علم البيان في كتاب البيان والتبيين .
- **الخاتمة**: و اشتملت على أهم النتائج والتوصيات، التي سعى البحث لكشفها.

المبحث الأول:

الجاحظ و كتابه "البيان والتبيين" و مصادره في علوم البلاغة

المطلب الأول

الجاحظ سيرة و حياة.

هو أبوعثمان عمرو بن بحر بن محبوب، الكناني الفُقيمي[1]، لُقّب بالجاحظ أو الحدقي لجحوظ عينيه، أي نتوئهما[2] ، وكان هذا اللقب لا يُعجبه، على ما يظهر، فيتبرم بمن يدعوه به، ويجهد نفسه لكي يقرر في أذهان الناس أن اسمه عمرو، وأنه يُحب أن يُدعى بهذا الاسم، وأن اسم (عمرو) أرشق الأسماء وأخفها وأظرفها وأسهلها مخرجًا[3]، وكان يكنى بأبي عثمان ويحكي عن نفسه قائلا: "نسيت كنيتي ثلاثة أيام، حتى عرفني أهلي."[4]

---

[1]- الأنساب : أبو سعد عبد الكريم بن محمّد بن منصور السمعانى ، تحقيق عبد الله عمر البارودى ، دار الفكر ـ بيروت ، ط١، ١٤٠٨ هـ ١٦٢/٣ .

[2]- نزهة الألباب في الألقاب: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني ، تحقيق: عبد العزيز محمد بن صالح السديري ، مكتبة الرشد – الرياض ، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م ١٥٩/١.

[3]- معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب): شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي ، تحقيق: إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، ط١، ١٤١٤ هـ- ١٩٩٣ م ٧٤/١٦ .

[4]- سير أعلام النبلاء : أبو عبد الله محمّد بن أحمد بن عثمان الذهبى ، تحقيق جماعة من العلماء بإشراف شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط١، ١٤٠٤ هـ ٥٢٧/١١ .

- **مولده و نشأته:**

تضاربت الآراء من قبل مؤلفي كتب السير و التراجم حول سنة مولد الجاحظ فقيل:"سنة ١٥٠هـ، وقيل سنة ١٥٩هـ، وقيل سنة ١٦٠هـ وإذا صحّ ما يرويه هو عن نفسه يتعين ميلاده أولها، فقد أُثر عنه أنه قال :" أنا أسن من أبي نواس بسنة ولدت في أول سنة ١٥٠هـ و ولد في آخرها"[١]، وإن كانت ولادته على وجه التحقيق، في العقد السادس من القرن الثاني من الهجرة. أما أبوه فلا يعرف عنه شئ إلاّ اسمه، وهذا يؤكد أنه لم يكن من عِلية القوم، ولا من متوسطيهم ويرجح أنه مات قبل أن ينضج ابنه الجاحظ ويذيع صيته، وإلاّ للحقه شيء من شهرته، وأما أمه فلا يعرف عنها إلاّ أنها كانت فقيرة رقيقة الحال، وكانت تنفق عليه وهو صغير، مما اضطره إلي كسب قوته ومواجهة أعباء الحياة مبكرا، فباع الخبز والسمك في صباه."[٢]

- **طلبه للعلم وشيوخه** :

تتلمذ الجاحظ على يد الأخفش أبي الحسن سعيد بن مسعد المجاشي، الذي كان أعلم الناس بالنحو والصرف، وصالح بن جناح اللخمي الذي أدرك التابعين وكلامه مستفاد في الحكمة، وأبي إسحاق إبراهيم بن سيار البلخي المشهور (بالنظام) أحد أبرز أئمة المعتزلة، الذي نهل منه علوم الكلام، وكان في جملة ما يحفظه الإنجيل والتوراة والزبور وتفسيرها،

١- معجم الأدباء ٧٤/١٦.

٢- معجم الأدباء ٧٤/١٦ .

عدا الشعر والأدب والغريب[١].

ومن أساتذة الجاحظ –أيضًا– موسى بن سيار الأسواري، الذي قال عنه الجاحظ: "إنه كان من أعاجيب الدنيا، وكانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية، وكان يجلس في مجلسه المشهور به، فيقعد العرب عن يمينه، والفرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله، ويفسرها للعرب بالعربية ثمّ يحول وجهه إلي الفرس فيفسرها لهم بالفارسية، فلا يدري بأي لسان هو أبين، واللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها إلا ما ذكروا من لسان موسى بن سيار الأسواري ولم يكن في هذه الأمة بعد أبي موسى الأشعري أقرأ في محراب من موسى بن سيار."[٢]

وظلَّ الميل للعلم ملازمًا للجاحظ طيلة عمره، حتَّى إنَّه فيما اشتُهِرَ عنه لم يكن يقنع أو يكتفي بقراءة الكتاب والكتابين في اليوم الواحد، بل كان يكتري دكاكين الورَّاقين ويبيت فيها للقراءة والنَّظر.[٣]

- **مرضه ووفاته** :

قضى الجاحظ نحبه في يوم من أيام شهر محرم سنة ٢٥٥هـ حينما

---

[١]– تاريخ بغداد: أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ٩٧/٦ .

[٢]– البيان والتبيين : عمرو بن بحر بن محبوب الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون، دار ومكتبة الهلال، بيروت ، ١٤٢٣ هـ ، ٣٦٨/١ .

[٣]– الفهرست : محمد بن إسحاق بن النديم ، دار المعرفة بيروت ١٩٧٨م ، ص ١٧٥.

زحف وحيدا إلي مكتبته المكتظة بالكتب المكدسة فانهالت مجلداتها الضخمة عليه، و"كان من عادته أن يضعها قائمة، كالحائط محيطة به وهو جالس إليها."[1]

- **مؤلفات الجاحظ**:

أكثر الجاحظ من التأليف، حتى قيل: إنه بزّ من سبقه، ومن لحقه، ولعل إكثاره من التأليف يعود لامتداد عمره، ولقضائه شطرا من حياته مريضًا، فاضطر إلي ملازمة بيته، وقطع فراغه بالكتابة والتأليف. قد خلّف للعلم والأدب العربي أكثر من خمسين و مائتي كتاب، طُبِعَ منها بعض الكتب، و أشهرها البيان و التبيين، و الحيوان، و كتاب البخلاء، و مجموع رسائله."[2]

قال السيوطي: "عمرو بن بحر بن محبوب أبو عثمان الجاحظ من أهل البصرة، أحد شيوخ المعتزلة. له كتاب البيان والتبيين، وكتاب الحيوان، وكتاب العرجان والبرصان والقرعان، توفي في المحرم سنة خمس وخمسين ومائتين وقد جاوز التسعين. "[3]، وفيما يأتي سرد لأهم **مؤلفات الجاحظ**

---

[1]- وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان. تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت ٤٧٤/٣ .

[2]- المرجع السابق ٤٧٠/٣ .

[3]- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، الناشر: المكتبة العصرية – لبنان ، صيدا ٢٢٨/٢ .

التي ذكرتها له كتب المؤلفات و المطبوعات[1]:

١. استحقاق الإمامة .

٢ . استنجاز الوعد.

٣ . الأوطان والبلدان .

٤ . البخلاء .

٥. البرصان والعرجان والعميان .

٦. البغال: أو رسالة في البغال.

٧ . البلاغة والإيجاز.

٨ . البيان والتبيين (وهو مدار هذه الدراسة) .

٩. الحنين إلى الأوطان .

١٠ . الحيوان: وهو الكتاب الأضخم والأكثر شمولا من كتب الجاحظ وله أهمِّيَّةٌ كبرى على صعدٍ مختلفةٍ .

١١ . خلق القرآن .

١٢. الردُّ عل المشبِّهة: رسالة كلاميَّة طُبِعَتْ في مجموعتي هارون وأبو ملحم.

١٣. الرَّد على النَّصارى: طبعت هذه الرِّسالة ضمن مجموعات هارون و أبو ملحم وأبو النصر ويوشع فنكل.

---

[1] – هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين : إسماعيل باشا البغداد، دار العلوم الحديثة، بيروت ، لبنان، ١٩٨١م ٨٠٢/١ ومعجم المطبوعات العربية والمعربة : يوسف أليان سركيس ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الأولى ٦٦٦/٢ .

١٤ـ صناعة الكلام: أو في صناعة الكلام، و قد أضيفت لها لفظة رسالة أيضًا، و طُبِعَتْ في مجموعتي هارون و أبو ملحم.

١٥ـ فخر السودان على البيضان .

١٦ـ المحاسن والأضداد.

المطلب الثاني

وصف كتاب البيان والتبيين وبيان منهج الجاحظ فيه

- **وصف الكتاب:**

كتاب "البيان والتبيين" من أضخم مؤلفات الجاحظ. ويلي كتاب "الحيوان" من حيث الحجم ويربو شهرة على سائر كتبه. وإذا كان كتاب "الحيوان" يعالج موضوعا علميا فإن كتاب "البيان والتبيين" ينصب على معالجة موضوع أدبي. ولكن الجاحظ في هذين الكتابين، شأنه في جميع كتبه، ينحو منحى فلسفيا.فهو لا يقتصر في كتاب "الحيوان" على أخبار الحيوانات وخصالها وطباعها، بل يتطرق إلى موضوعات فلسفية كالكمون والتولد، والجواهر والأعراض، والجزء الذي لا يتجزأ، والمجوسية والدهرية الخ. وفي كتاب "البيان والتبيين" لا يكتفي بعرض منتخبات أدبية من خطب ورسائل وأحاديث وأشعار، بل يحاول وضع أسس علم البيان وفلسفة اللغة.[١]

وألّف الجاحظ كتاب "البيان والتبيين" (القسم الأول منه) في الفترة التي اتصل فيها بالقاضي أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي النزعة (بعد ٢٣٢هـ)[٢] ونال عليه جائزة سنية تبلغ خمسة آلاف دينار، وأتمه بعد انتقاله إلى البصرة عند ما طعن في السن[٣]، وقد شرع بتأليفه بعد كتاب "الحيوان" كما يتضح

١- البيان والتبيين (مقدمة المحقق) ٥/١ .

٢- الأعلام : خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ـ بيروت ـ الطبعة العاشرة ١٩٩٢م ١٢٤/١ .

٣- سير أعلام النبلاء ٤١٥/٩ .

من كلام الجاحظ ذاته حيث يقول: "كانت العادة في كتاب الحيوان أن أجعل في كل مصحف من مصاحفه عشر ورقات من مقطعات الأعراب ونوادر الأشعار لما ذكرت عجبك بذلك فأحببت أن يكون حظ هذا الكتاب من ذلك أوفر إن شاء الله."[١]

قال ياقوت الحموي: "وهو- أي كتاب البيان والتبيين- نسختان: أولى وثانية، والثانية أصح وأجود"[٢]، ورجح عبد السلام هارون أن تكون النسخة الثانية هي نسخة مكتبة كوبريلي، التي هي أصح النسخ، وهي نسخة عليها ختم الوزير كوبرلي سنة ١٠٨٨هـ[٣] .

وقال أبو هلال العسكري في وصف كتاب البيان والتبيين: "وهو لعمرى كثير الفوائد، جمّ المنافع؛ لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة، والفقر اللطيفة، والخطب الرائعة، والأخبار البارعة، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء، وما نبّه عليه من مقاديرهم فى البلاغة والخطابة؛ وغير ذلك من فنونه المختارة، ونعوته المستحسنة، إلا أنّ الإبانة عن حدود البلاغة، وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة فى تضاعيفه، ومنتشرة فى أثنائه؛ فهى ضالّة بين الأمثلة، لا توجد إلا بالتأمل الطويل، والتصفّح الكثير"[٤] ، وقال ابن رشيق

١- البيان والتبيين ٨/١ .

٢- معجم الأدباء ٢١١٨/٥ .

٣- البيان والتبيين (مقدمة المحقق) ٥/١ .

٤- الصناعتين (الكتابة والشعر) : أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية – بيروت ، ١٤١٩ هـ ص ٥ .

القيرواني: "وقد استفرغ أبو عثمان الجاحظ- وهو علاَّمة وقته- الجهد، وصنع كتابًا لا يُبلغ جودة وفضلا، ثم ما ادعى إحاطته بهذا الفن لكثرته، وأن كلام الناس لا يحيط به إلا الله عز وجل"[١]، وقال ابن خلدون:" سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول فن الأدب وأركانه أربعة دواوين وهي: أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لأبي علي القالي، وما سوى هذه الأربعة فتبعٌ لها وفروعٌ منها"[٢].

- **تقسيم الكتاب**:

صنع الجاحظ كتابه في ثلاثة أجزاء، ودليل ذلك أنه ابتدأ كلا من الجزء الثاني والثالث بعبارة تعلن بدايته وانتهاء سابقه، فالجزء الثاني يبدأ بالعبارة الآتية: «أردنا -أبقاك الله- أن نبتدئ صدر هذا الجزء الثاني من البيان والتبيين بالرد على الشعوبية في طعنهم على خطباء العرب وملوكهم... »[٣].

وفي مطلع الجزء الثالث نلقي العبارة التالية المماثلة: «هذا -أبقاك

---

[١]- العمدة في محاسن الشعر: الحسن بن رشيق القيرواني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٧١/١ .

[٢]- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، دار الكتاب اللبناني ١٩٨١م ٧٦٣/١ .

[٣]- البيان والتبيين (مقدمة المحقق) ٥/٢ .

الله- الجزء الثالث من القول في البيان والتبيين ... »[1]. ولقد اعتمد من حقق الكتاب على هذا الدليل الواضح والتزم بتجزئة المؤلف وقسمنا الكتاب ثلاثة أجزاء.

ويعني الجاحظ بالبيان الدلالة على المعنى، وبالتبيين الإيضاح ، وقد عرف الكتاب خير تعريف بقوله الوارد في مطلع الجزء الثالث: «هذا -أبقاك الله- الجزء الثالث من القول في البيان والتبيين، وما شابه ذلك من غرر الأحاديث، وشاكله من عيون الخطب، ومن الفقر المستحسنة، والنتف المستخرجة، والمقطعات المتخيرة، وبعض ما يجوز في ذلك من أشعار المذاكرة والجوابات المنتخبة»[2] ..وهكذا نجد في كل جزء من أجزاء الكتاب الثلاثة بحثا في البيان والتبيين، ومجموعات من الأحاديث والخطب والمقطعات والجوابات والأشعار.

ولقد التزم الجاحظ هذا التصميم وقصد إليه قصدا ليجنب القارىء الملل أو السأم بتنويع الموضوعات. وقد عبّر عن ذلك بقوله: «وجه التدبير في الكتاب إذا طال أن يداوي مؤلفه نشاط القارىء له، ويسوقه إلى حظه بالاحتيال له، فمن ذلك أن يخرجه من شيء إلى شيء ومن باب إلى باب، بعد أن لا يخرجه من ذلك الفن، ومن جمهور ذلك العلم»[3].

---

[1]- البيان والتبيين (مقدمة المحقق)، المصدر السابق نفسه.

[2]- البيان و التبيين، ٢٣٧/٣ .

[3]- المرجع السابق، المصدر السابق نفسه.

- **موضوع الكتاب** :

موضوع الكتاب هو علم البيان وفلسفة اللغة، وقد قام الجاحظ بتوزيع المادة المتعلقة بهذا الموضوع على الأجزاء الثلاثة على النحو الآتي[1]:

ـ في الجزء الأول تحدث عن مفهوم البيان وأنواعه، وآفات اللسان، والبلاغة والفصاحة.

. في الجزء الثاني تحدث عن الخطابة وطبقات الشعراء.

. في الجزء الثالث تكلم على أصل اللغة وقيمة الشعر.

وفي كل جزء من الأجزاء الثلاثة أورد أبو عثمان منتخبات من كلام الأبيناء، خطبا ومقطعات وأحاديث ورسائل وأشعارا، نسبها إلى مختلف طبقات الناس: عقلاء وحمقى، نساك ومتهتكين، أعراب ومتحضرين، رؤساء وسوقة.

- **منهج وأسلوب الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين"**:

أسلوب الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" هو أسلوبه-نفسه- في مؤلفاته الأخرى، التي اشتهر فيها بتنوعه واستطراده. ففيه يجد ما وجب الجدّ ويهزل ما حسن الهزل، وما هو يستقر نسقا واحدا في الموضوع الواحد، بل يمضي دفقا متنوعاً متقلباً، تنوع طباع الكاتب وتقلباتها، وإذ يحكي ويقص، ويسرد ويحلل ويعلل ويصف ويعرض الشواهد والنماذج ثم هو يستطرد، ويتباين بتباين مواضيع الكتاب وأشخاصه من كتاب وخطباء وبلغاء ومعلمين وناس عاديين وغير عاديين.

---

[1] - المرجع السابق ٧/١ .

وكان من عادة الجاحظ في تأليفه أن يرسلَ نفسه على سجيتها، فلا يتقيد بنظام محكم يترسمه، ولا يلتزم نهجًا يحذوه، ولذلك نراه يبدأ الكلام في قضية من القضايا، ثم يدعها في أثناء ذلك ليدخلَ في قضية أخرى، ثم يعود إلى قضيته الأولى، وقد كانت هذه طريقة علماء عصره، فكان الجاحظ يشعر بذلك و يعتذرعنه أحيانًا، فيقول:"وكان في الحق أن يكون هذا الباب في أول هذا الكتاب، ولكنا أخرناه لبعض التدبير، ومثل هذا كثير في كتابه البيان والتبيين.[1]

[1]- البيان والتبيين ١/٨٢ .

المبحث الثاني

الفكر البلاغي و مباحثه في كتاب البيان والتبيين.

المطلب الأول

علم البيان ومنزلته

البيـان لغـة[١]الكشـف، والإيضـاح، والظهُـور، واصطلاحـًا: أصـول و قواعد، يعرف بها إيرادُ المعنى الواحد بطرق يختلف بعضُها عن بعض، في وُضوح الدّلالة العقلية على ذلك المعنى نفسه، فالمعنى الواحد: يُستطاع أداؤه بأساليب مُختلفة في وضوح الدّلالة عليه.[٢]

وقيل في تعريف علم البيان: " هو علم يبحث في كيفيّات تأدية المعنى الواحد بطُرُقٍ تختلف في وضوح دلالاتها، وتختلف في صُورِها وأشكالها وما تتصف به من إبداعٍ وَجمالٍ، أو قُبْحٍ وابْتذال."[٣]

والبيان اسم لكل شيء إذا كشف لك بان المعنى، وهتك لك الحجب [دون الضمير] حتى يفضى السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله، كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان ذلك الدليل؛ لأن مدار الأمر والغاية

---

١ – لسان العرب : محمد بن مكرم بن منظور المصري ، دار صادر بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٠م ٦٢/١٣

٢ – جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع : أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي ، ضبط وتدقيق وتوثيق: يوسف الصميلي ، المكتبة العصرية، بيروت ص٢١٦

٣ – البلاغة العربية : عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة، دار القلم، دمشق، ١٤١٦هـ– ١٩٩٦م، ١٢٦/٢ .

التي يجري إليها القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع. واعلم أن المعتبر في علم البيان دقة المعاني المعتبرة فيها من الاستعارات والكنايات مع وضوح الألفاظ الدالة عليه، فالبيان هو المنطق الفصح، المعرب عما في الضمير[١].

وموضوع علم البيان الألفاظ العربية، من حيث، التشبيه ، والمجاز والكناية ، و واضعه هو أبو عبيدة مَعْمَرُ بن المثنَّى الذي دونَ مسائل هذا العلم في كتابه المُسمَّى « مجاز القرآن » وما زال ينمو شيئًا فشيئًا، حتى وصل إلى الامام «عبد القاهر» فأحكم أساسه، وشيَّدَ بناءه، ورتَّب قواعده، وتبعه الجاحظ، وابن المعُتزّ، وقُدامَة، وأبو هلال العسكري.

وثمرة علم البيان الوقوف على أسرار كلام العرب «منثورِه ومنظومِه» ومعرفة ما فيه من تفاوُت في فنون الفصاحة، وتبايُن في درجات البلاغة التي يصل بها إلى مرتبة إعجاز (القرآن الكريم) الذي حار الجنُّ والإنسُ في مُحاكاته، وعجزوا عن الإتيان بمثله.[٢] والذي يُمَارِسُ صناعة الكلام قولا وكتابةً يُلاحظُ أَنَّ اللُّغَاتِ جَمِيعَها – وفق وضْعُ كُلّ كلمة أو عبارة لتدلَّ على معنىً من المعاني– مهما اتَّسَعَتْ فإنَّها لا تكفِي للدَّلاَلة على المعاني التي تُدْرِكها الأذهان، والدَّلالَةِ على المشاعر التي تُحِسُّ بِها النفوس. وعلى الرغم من أنّ اللّغة العربية أوسع اللُّغَاتِ العالميّة وأثراها من جهة الدلالة على

---

[١] – جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ص٢١٦ .

[٢] – جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ص٢١٧ .

المعاني الفكرية والمشاعر النفسيّة، فإنَّ هذا الحكم يشملها، إذا نظرنا إلى حدود الأوضاع اللّغوية للكلمات وللعبارات .

والذاكرة الإنسانيّة مهما عظمت قدرتها على استيعاب المفردات اللّغويّة مقرونةً بدلالاتها على المعاني التي وُضِعَتْ لها، ومَهْمَا عَظُمت قُدرَتُها على استدعاء ما تحتاج من هذه المفردات عند الحاجة إليها، للدلالة بها على ما تُرِيد التعبير عنه من المعاني، لا تستطيع أن تستوعبَ وتحفظ كُلَّ مفردات اللّغة، ولا تستطيع أن تستذكر دواماً كُلَّ ما تحتاج إليه من المفردات والتعبيراتِ اللُّغوية، لتقدمها إلى أداة التعبير باللّسان أو بالقلم عند الحاجة.[1] لكِنَّ الإنسان قد أتاهُ الله –عزّ وجلّ– قُدْرَةً فَائِقَةً عَلى التعبير عمّا يريد من معانٍ ذهنيّة، ومَشاعر نفْسِيّةٍ بطُرُق أُخْرى غير طريق الأوضاع اللّغويّة الّتي وُضعت بها المفردات والعبادات لتدُلَّ دلالةً مباشرةً عليها، فَهُوَ يحتال للتعبير عمّا يريد التعبير عنه عن طريق ما تُسعفه به ذاكرتُه من مفرداتٍ وعبارات بواحدة فأكثر من الطُّرُق الآتية :

. الطريق الأول: طريق التَّشْبيه والتمثيل، واستخدام النظير ليَدُلَّ على نظيره .

. الطريق الثاني: طريق اللّوازم الفكريّة الّتي تُدْرِكُها الأذهان لدَى إدْراكِ أشياء تستدعيها باللُّزُوم الذّهني، فيَذْكُر الألفاظ الدالّة على هذه الأشياء مشيرا بِهَا إلى لوازمها الذهنيّة، كطول الثوب الّذي يستَدْعي باللُّزُوم الذّهْنِي طُولَ لابسه، وكَرُوْيَةِ النجوم رؤيَةً واضِحةً الَّتِي تَسْتدعي باللُّزُوم الذهني كونَ هذه الرُّوْيَة حاصلةً في اللّيل، وهذا ما يُسمَّى بالكناية.

---

[1] – البلاغة العربية ١٢٣/١ .

. الطريق الثالث: طَرِيقُ ذكر أشياء يُنَبّه ذِكْرُهَا عَلى أشباهها، أو أضدادها، أو ما يخالفها، فيكون ذكرُها مشيرا بتعريض إلى تِلْكَ الأشباه أو الأضداد أو المخالفات، وهذا يُسمَّى تعريض.

ـ الطريق الرابع: طريق استخدام لفْظٍ مكان لفظ آخر صالحٍ لأنْ يَدُلَّ على معناه لعلاقة بينهما، وهذا ما يُسَمَّى بالمجاز.[1]وفتحت هذه الحيل التعبيرية آفاقًا واسعة جدًّا لانتفاء صُورٍ جماليّة لاَ تُحْصى، يتحقَّق بها الغرضان المهمّان من أغراض الكلام وهما :

. الغرض الأوّل: إفْهامُ المتلَقِّي ما يُريد المتكلّم التعبير عنه.

. الغرض الثاني: إمتاعُه بصُورٍ جماليّة يشتمل عليها الكلام، ولهذا الإمتاع تأثيرٌ في النفوس، وقد يكون وسيلة لقبول المضمون الفكري الذي دلَّ عليه الكلام، ولاعتقاده، وللعمل بمقتضاه.[2]

---

[1] – جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ١/١٢٤ .

[2] – البلاغة العربية ١/١٢٤ .

المطلب الثاني

مباحث علم البيان في كتاب البيان والتبيين

عرّف الجاحظ علم البيان بقوله: "البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يغضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والأفهام، فبأي شيء بلغت الأفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع."[١]

وكان الجاحظ يرى أن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ، لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني مقصورة معدودة، ومحصلة محدودة.[٢]

ويرى العلماء –هنا– أن مفهوم البيان عند الجاحظ ارتبط في مرحلة أولى بغاية التعبير عن خفايا الحاجات والمعاني، وهتك الحجاب دونها ليتم للناس مرادهم من اجتماعهم ويدركوا حكمة الخلق، وما أودع الكون من جليل الحكمة.[٣]

---

[١] – البيان والتبيين ٨٢/١ .

[٢] – المرجع السابق ٨٢/١ .

[٣] – التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة): حمادي صمو، منشورات الجامعة التونسية، تونس ١٩٨١م، ص ١٥٨.

كما تطرق الجاحظ إلى أنواع البيان وحصرها وسماها [أدوات البيان الخمس]، و وضح من هذا الحصر أنه يرى أن هذا العلم له خمسة فروع، بقوله: "وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نصبة ، والنصبة هي الحال الدالة، التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقصر عن تلك الدلالات، ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبتها، وحلية مخالفة لحلية أختها، وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة، ثم عن حقائقها في التفسير، وعن أجناسها وأقدارها، وعن خاصها وعامها، وعن طبقاتها في السار والضار، وعما يكون منها لغوًا بهرجًا، وساقطًا مطرحًا."[١]

والذي يتأمل منهج الجاحظ في كتابه "البيان والتبين" يجده في الغالب يستخدم لفظة البيان للدلالة على بلاغة التعبير بلغة الكلام المقول أو المكتوب، فيصبح بهذا مرادفا للفظة "بلاغة"، فالبيان– بالنسبة للمتكلّم– هو قبل كل شيء تعبير المتكلم عمّا في صدره، ومحصلة كل ذلك أن البيان بمعناه اللغوي، أو المعنى العام، أو الأدبي يعني: التعبير عما يدور في الذهن، وتحسن به النفس بأسلوب فني رائع، أو هو المميزات التي يتفاضل بها الأدباء والشعراء، ويظهر بها فضل كلام على كلام.[٢]

---

[١] – البيان والتبيين ٨٢/١ .

[٢] – النّظريات اللّسانية و البلاغية و الأدبية عند الجاحظ: محمد صغير بناني، ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٩٤م، ص ٢٠٢.

ويلاحظ أن الجاحظ قام بتعريف البيان في كتابه الحيوان مقتصرا على ذكر الأنواع الأربعة الأولى – فقط – بقوله: " البيان على أربعة أقسام: "لفظ، وخطّ، وعقد ، وإشارة "، وجعل بيان الدليل الذي لا يستدلّ تمكينه المستدلّ من نفسه، واقتياده كلّ من فكّر فيه إلى معرفة ما استخزن من البرهان، و حشي من الدّلالة، و أودع من عجيب الحكمة."[١]

ويشير الجاحظ إلى أهمية علم البيان ومزيته وفضله، فيقول: " المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم، والمتخلجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم، مستورة خفية، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه و خليطه، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره، وإنما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها، وأخبارهم عنها، واستعمالهم إياها، وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم، وتجليها للعقل، وتجعل الخفي منها ظاهرا، والغائب شاهدا، والبعيد قريبًا ، وهي التي تلخص الملتبس، وتحل المنعقد، وتجعل المهمل مقيدا، والمقيد مطلقًا، والمجهول معروفًا، والوحشي مجلوفًا، والغفل موسومًا، والموسوم معلومًا، وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل، يكون إظهار المعنى. و كلما كانت الدلالة أوضح

---

[١] – الحيوان: عمرو بن بحر الجاحظ ، دار الكتب العلمية– بيروت، ط ٢، ١٤٢٤هـ، ٢٩/١ .

وأفصح، و كانت الإشارة أبين."[١]

ونقل الجاحظ طائفة من أقوال العلماء في بيان فضل وأهمية علم البيان ومن ذلك قول سهل بن هارون: "العقل رائد الروح، والعلم رائد العقل، والبيان ترجمان العلم."[٢]، وقال صاحب المنطق: "حد الإنسان: الحي الناطق المبين."[٣]

١/ التشبيه:

التشبيه: صفة الشيء بما قاربه وشاكله ، ومن جهة واحدة أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته؛ لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه، ألا ترى أن قولهم "خذ كالورد" إنما أرادوا حمرة أوراق الورد وطراوتها، لا ما سوى ذلك من صفرة وسطه وخضرة كمائمه، و كذلك قولهم" فلان كالبحر، أو كالليث" إنما يريدون كالبحر سماحة وعلمًا، وكالليث شجاعة.[٤] وأبان ابن رشيق أنواع التشبيه حينما قال: "واعلم أن التشبيه على ضربين: تشبيه حسن، وتشبيه قبيح، فالتشبيه الحسن هو الذي يخرج الأغمض إلى الأوضح فيفيد بيانًا، والتشبيه القبيح ما كان على خلاف ذلك ..."[٥]

ويشترك التشبيه والتمثيل في أن كلاهما بمعنى الدلالة على مشاركة

---

١ – البيان والتبيين، ٨١/١ .
٢ – البيان والتبيين ٨٣/١ .
٣ – المرجع السابق ٨٣/١ .
٤ – العمدة في محاسن الشعر وآدابه ٢٨٦/١ .
٥ – المرجع السابق ٢٨٧/١ .

شيءٍ لشيءٍ في معنى أو أكثر من المعاني لغرض، ويختص لفظ "التمثيل" بالتشبيه المركّب الذي يكون وجْهُ الشبه فيه منتزعًا من متعدّد.[١] ولم يقم الجاحظ بتعريف التشبيه ولكن ما ذكره عنه يدل على نفس تعريف جمهور العلماء له، وقد أورد الجاحظ في كتابه البيان والتبيين بعض الشواهد التي تدل على عنايته بهذا الجانب، ومن ذلك ما ذكره[٢]: أن الله -عز وجل- ضرب مثلا لعيّ اللسان ورداءة البيان، حين شبّه أهله بالنساء و الولدان، فقال -تعالى-: ﴿أَوَمَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾[٣] وإبراز وجه المفاضلة بين تشبيه كلام الشعراء وكلام النبي- صلى الله عليه وسلم – أو ما ورد عنه ، حيث أورد الجاحظ قول الشاعر: [الوافر]

شبابهمُ وشيبهمُ سواء ... فهم في اللوم أسنان الحمار[٤]

وعلّق عليه بقوله: " وإذا حصلت تشبيه الشاعر وحقيقته، وتشبيه النبي -صلّى الله عليه وسلّم- وحقيقته، عرفت فضل ما بين الكلامين، وقال -صلّى الله عليه وسلّم-: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم،

---

١ – البلاغة العربية ١٢٧/٢ .

٢ – البيان والتبيين ٣٤/١ .

٣ – سورة الزخرف: ١٨.

٤ – لم أقف على من أورد اسم الشاعر والبيت بلا نسبة في ثمار القلوب في المضاف والمنسوب : عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي، دار المعارف – القاهرة، ص ٨٨.
الطبعة الأولى ، ١٩٦٥م ص ٣٧١ وفي جمهرة الأمثال : أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد العسكري ، دار الفكر – بيروت ٥٢٣/١ .

ويرد عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم»[١] فتفهم رحمك الله، قلة حروفه، وكثرة معانيه."[٢] وذكر ابن رشيق هذا الحديث في باب البيان وقال عقبه: " فهذا كلام في نهاية البيان والإيجاز"[٣]، كما أورده الحصري ضمن الصريح الفصيح، العزيز الوَجيز، المتضمن بقليل من المباني كثيرَ المعاني من كلام النبي صلى الله عليه وسلم.[٤]

٢/ المجاز:

المجاز لغة: مصدر فِعْلِ "جَازَ" يقال لغة: جاز المسافر ونحوه الطريق، وجاز به جَوْزا وجوازا ومجازا، إذا سار فيه حتى قطعه ، ويطلق لفظ "المجاز" على المكان الذي اجتازه من سار فيه حتى قطعه.[٥] والمجاز اصطلاحًا: هو اللّفظ المستعمل في غير ما وُضِع له في اصطلاح التخاطب، على وجْهٍ يصِحُّ مع قرينة عدم إرادة مَا وُضِع له ، فإذا كانت العلاقة المصحّحة لهذا الاستعمال المشابهة بين ما اسْتُعْمِل اللّفظ للدّلالة عليه وبَيْن ما وُضِعَ له في اصطلاح التخاطُب.[٦]

---

[١] – سنن أبي داود : : سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني، دار الفكر، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، ٨٩/٢ حديث ٢٧٥١ .

[٢] – البيان والتبيين ١٥/١ .

[٣] – العمدة في محاسن الشعر وآدابه ٢٥٥/١ .

[٤] – زهر الآداب وثمر الألباب : إبراهيم بن علي الحُصري القيرواني ، دار الجيل، بيروت، ٦٠/١ .

[٥] – لسان العرب ٣٢٦/٥ .

[٦] – البلاغة العربية ١٢٨/٢ .

لم يذكر الجاحظ في البيان والتبيين تعريفًا محددا للمجاز، ولكن من يرجع لكتب الجاحظ الأخرى يجده تناوله بالمعنى الاصطلاحي -نفسه-عند أهل البلاغة، فقد أورد الجاحظ في كتاب الحيوان بابًا باسم (قول في المجاز) أورد فيه بعض الشواهد منها قوله: " وأما قوله عزّ وجلّ:{ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ}[1]، فالعسل ليس بشراب، وإنما هو شيء يحوّل بالماء شرابا، أو بالماء نبيذا. فسماه كما ترى شرابا، إذ كان يجيء منه الشراب، وقد جاء في كلام العرب أن يقولوا: جاءت السماء اليوم بأمر عظيم..."[2]، وأشار الجاحظ إلى أن هذا [أي المجاز] بأنه " مفخر العرب في لغتهم، وبه وبأشباهه اتسعت "[3] .

وقد ذكر الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" بعض العبارات التي يفهم منها أن معنى المجاز عنده لا يخرج من دائرة نقل المعنى من معناه الأصلي إلى معنى بعيد لا يدرك إلا من وراء الألفاظ ، ومن الشواهد على ذلك قوله: " المعاني إذا كسيت الألفاظ الكريمة، وألبست الأوصاف الرفيعة، تحولت في العيون عن مقادير صورها، وأربت على حقائق أقدارها، بقدر ما زينت، وحسب ما زخرفت. فقد صارت الألفاظ في معاني المعارض، وصارت المعاني في معنى الجواري."[4]

---

١ – سورة النحل: ١٦.

٢ – الحيوان ٥/٢٢٧ .

٣ – المرجع السابق ٥/٢٢٨ .

٤ – البيان والتبيين ١/٢١٢ .

ومن الشواهد التي يستدل بها العلماء على ورود المجاز في كتاب "البيان والتبين" ما أورده الجاحظ عن القصص التي كان يرويها بعض من فسر القرآن الكريم في عصره، ومن ذلك قوله حكاية عن أحد هؤلاء :" ... ثم قصّ في مسجده أبو علي الأسواري، وهو عمرو بن فائد، ستا وثلاثين سنة، فابتدأ لهم في تفسير سورة البقرة، فما ختم القرآن حتى مات، لأنه كان حافظا للسير، ولوجوه التأويلات فكان ربما فسر آية واحدة في عدة أسابيع، كأن الآية ذكر فيها يوم بدر، وكان هو يحفظ مما يجوز أن يلحق في ذلك الأحاديث كثيرا. وكان يقص في فنون من القصص، ويجعل للقرآن نصيبا من ذلك. وكان يونس بن حبيب يسمع منه كلام العرب، ويحتجّ به. وخصاله المحمودة كثيرة."[1] و قوله: "كأن الآية ذكر فيها يوم بدر" يدل على أن الجاحظ لاحظ العلاقة البعيدة بين النّصوص المفسرة والأخبار المسرودة وعبارة مما يجوز لم تأت عفوا منه فهو كثيرا ما يعبر عن المفهوم البلاغي لمشتقاته.[2]

٣/ الاستعارة :

الاستعارة في اللّغة : طلبُ شيءٍ ما للانتفاع به زمنًا ما دون مقابل، على أن يَرُدَّه المستعير إلى الْمُعِير عند انتهاء المدّة الممنوحة له، أو عند الطلب[3]. والاستعارة في اصطلاح البيانيين: استعمال لفظٍ ما في غير ما وُضِع له في اصطلاحٍ به التخاطب، لعلاقة المشابهة، مع قرينة صارفةٍ عن

---

[1] – البيان والتبيين ١/٢٩٤ .

[2] – النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ، ص٢٧٧ .

[3] – لسان العرب ٤/٦١٢ .

إرادة المعنى الموضوع له في اصطلاحٍ به التخاطب.[١]

وهي من قبيل المجاز في الاستعمال اللّغوي للكلام، وأصلُها تشبيهٌ حُذِفَ منه المشَبّه وأداةُ التشبه ووجْهُ الشَّبَه، ولم يبق منه إلاَّ ما يدلُّ على المشبّه به، بأسلوب استعارة اللفظ الدالّ على المشبَّه به، أو استعارة بعض مشتقّاته، أوْ بعض لوازمه، واستعمالها في الكلام بدلا عن ذكر لفظ المشبَّه، مُلاَحَظًا في هذا الاستعمال ادّعاءُ أنَّ المشبَّه داخل في جنس أو نوع أو صنْف المشبّه به، بسبب مشاركته له في الصفة الّتي هي وجه الشَّبَهِ بينهما، في رؤية صاحب التعبير[٢]. وعرّف عبد القاهر الجرجاني الاستعارة بقوله: "اعلم أن«الاستعارة» في الجملة أن يكون للّفظ أصل في الوضع اللغوي معروف تدلّ الشواهد على أنه اختصّ به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلا غير لازم، فيكون هناك كالعارية."[٣]

وعقد ابن رشيق في كتابه العمدة بابًا للإستعارة[٤]، ولم يذكر تعريفًا لها ولكن نقل قول القاضي الجرجاني في تعريفها فقال: "الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصلي، ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها، وملاكها بقرب التشبيه ، ومناسبة المستعار للمستعار له، وامتزاج اللفظ

---

١ – البلاغة العربية ٢/٢٢٩ .

٢ – البلاغة العربية، ٢/٢٢٩ .

٣ – أسرار البلاغة فى علم البيان : عبد القاهر الجرجاني تحقيق: عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية، بيروت ، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م ص ٣١ .

٤ – العمدة في محاسن الشعر وآدابه ١/٢٦٨ .

بـالمعنى حتـى يوجـد بينهمـا منـافرة، ولا يتبـين فـي أحـدهما إعـراض عـن الآخر."[١]

وأركان الاستعارة على هذا أربعة وهي[٢]:

. اللفظ المستعار.

. المعنى المستعار منه، وهو المشبّه به.

. المعنى المستعار له، وهو المشبّه.

ـ القرينـة الصـارفة عـن إرادة مـا وُضِـع لـه اللّفـظ فـي اصـطلاحٍ بـه التخاطب.

وعرّف الجاحظ الاستعارة بقوله: "الاستعارة، تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه"[٣].

ويشيرالجاحظ إلى أن قاعدة الاستعارة هي المجاز ويستدل على ذلك بقول الله- عز وجل-:{هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ}[٤]، فيقول: "والعذاب لا يكون نزلا، ولكن لما قام العذاب لهم في موضع النعيم لغيرهم، سمي باسمه."[٥]

ويستشهد الجاحظ أيضًا بقول الشاعر:

---

١ – الوساطه بين المتنبي وخصومه ونقد شعره: أبو الحسن علي القاضي الجرجاني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ص٤١، وانظر:العمدة لابن رشيق،٢٧٠/١.

٢ – البلاغة العربية ٢٣٠/٢ .

٣ – البيان والتبيين ١٤٢/١ .

٤ – سورة الواقعة: ٥٦ .

٥ – البيان والتبيين، المرجع السابق ١٤٢/١ .

فقلت أطعمني عمير تمرا ... فكان تمري كهرة وزبرا[١]

يقول: "والتمر لا يكون كهرة ولا زبرا، ولكنه على ذا، وقال الله -عز وجل-: {وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا}[٢]، قال الجاحظ: وليس في الجنة بكرة ولا عشي، ولكن على مقدار البكر والعشيات، وعلى هذا قول الله -عز وجل-: {قَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ}[٣]، والخزنة: الحفظة ، وجهنم لا يضيع منها شيء فيحفظ ولا يختار دخولها إنسان فيمنع منها، ولكن لما قامت الملائكة مقام الحافظ الخازن سميت به."[٤]

وسبب الاستعارة عجز الأسماء عن استيعاب المعاني، فالمتكلم يلجأ لسدّ الفراغ الناشئ عن هذا العجز إلى اسم مجاور ينقله من مكانه العادي ويحوله عن مجراه الطبيعي إلى ذلك الموضع الشاغر والاستعمال المؤقت ليتمكّن من التعبير عمّا يريد، وإبلاغ السامع ذلك المعنى الجديد فالاستعارة إذن هي نقل المعاني[٥]. فالجاحظ يعد الاستعارة نقلا للمعاني والمدلولات، لا للألفاظ. للألفاظ.

وبيّن الآمدي النهج العربي في أسلوب الاستعارة وأن العرب إنما تستعير لمعنى ما ليس له إذا كان يقاربه أو يدانيه أو يشبهه في بعض

---

١ - البيان والتبيين ١٤٢/١ .
٢ - سورة مريم: ٦٢.
٣ - سورة غافر: ٤٩.
٤ - المرجع السابق ١٤٢/١ .
٥ - النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ، ص٢٩٢ .

أحواله، فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشئ الذي استعيرت له وملائمة لمعناه[١].

٤/ الكناية:

أورد ابن فارس اللغوي في مادة (كنو): "الكاف والنون والحرف المعتل يدل على تورية عن اسم بغيره. يقال: كنيت عن كذا، إذا تكلمت بغيره مما يستدل به عليه. وكنوت أيضًا، وتسمى الكنية كنية، كأنها تورية عن اسمه، وكنى الرؤيا هي الأمثال التي يضربها ملك الرؤيا، يكني بها عن أعيان الأمور."[٢]

والكناية: اللّفظ المستعمل فيما وضِع له في اصطلاح التخاطب للدّلالة به على معنىً آخر لازمٍ له، أو مصاحبٍ له، أو يُشار به عادةً إليه، لما بينهما من الملابسة بوجهٍ من الوجوه ، وقال البيانيون في تعريف الكناية: "هي لفظٌ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه."[٣]

جاء في الطراز: "أن أرباب علوم البلاغة متفقون على أن المجاز أبلغ من الحقيقة فى تأدية المعنى، وعلى أن الاستعارة أقوى من التصريح، وأن الكناية أدخل فى إفادة المعانى من تلك الصرائح الموضوعة، وذلك لأن

---

١ – الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري : أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف ، مصر ، ٢٦٧/١

٢ – معجم مقاييس اللغة لابن فارس ١٣٩/٥ .

٣ – الإيضاح في علوم البلاغة : جلال الدين محمد بن سعد الدين بن عمر القزويني ، دار إحياء العلوم – بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٩٩٨م ص ٣٠١ .

دلالة هذه الأمور على ما تدل عليه، إنما كان دلالة باللازم والتابع، ولا شك أن الدلالة على الشيء بلازمه أكشف لحاله، وأبين لظهوره، وأقوى تمكنّا فى النفس من غير ما ليس بهذه الصفة."[١] ولم يعرّف الجاحظ الكناية لا في اللغة ولا في الاصطلاح ولكن ما أورده من شواهد تدل على أنه لا يخالف مذهب جمهور البلاغيين في تعريفها (إخفاء المعنى المقصود وإظهار معنى آخر). ومن يتأمل الشواهد البلاغية التي أوردها الجاحظ يدرك هذا المعنى بوضوح، ومن ذلك قوله: " وإذا قالوا فلان مقتصد فتلك كناية عن البخل، وإذا قالوا للعامل مستقص فتلك كناية عن الجور."[٢]، فانظر كيف عبّر الجاحظ في هذا الشاهد عن معنى البخل بلفظ لا يدل عليه مباشرة وهو قوله [مقتصد]، والأمر عينه يدل عليه قوله [مستقص]، وهو لفظ لا يدل على معنى الجور في الظاهر.

وأورد ابن عبد البر الأندلسي أن رجلا أوصى بنيه فقال: "يا بني! عليكم بالنسك، فإنه إذا ابتلى أحدكم بالبخل..قيل: مقتصد لا يرى الإسراف، وإن ابتلى بالعي، قيل: يكره الكلام فيما لا يعينه، وإن ابتلى بالجبن، قيل : لا يقدم على شبهة."[٣] ويرى الجاحظ أن هناك بعض الضرورات التي تدعو إلى خروج اللفظ مخرج الكناية ويستشهد على ذلك بأمثلة تشير إلى أن العرب

---

١ – الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز : يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ ، المكتبة العصرية – بيروت ، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ ١٥٦/١ .

٢ – البيان والتبيين ٢٢٠/١ .

٣ – بهجة المجالس وأنس المجالس : أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، دار الكتب العلمية ص ٢٢٨ .

كانت تعدل عن المعنى الحقيقي للفظ لمعان أخرى يقتضيها الحال، يقول: "وربما كان اسم الجارية غليّم أو صبيّة أو ما أشبه ذلك، فإذا صارت كهلة جزلة، وعجوزا شهلة، وحملت اللحم وتراكم عليها الشحم، وصار بنوها رجالا وبناتها نساء، فما أقبح حينئذ أن يقال لها: يا غليم كيف أصبحت؟ ويا صبية كيف أمسيت، ولأمر ما كنّت العرب البنات فقالوا: فعلت أم الفضل، وقالت أم عمرو وذهبت أم حكيم. نعم حتى دعاهم ذلك إلى التقدم في تلك الكنى."[١]

وفي إظهار بلاغة الكناية يقول الجاحظ: "بل رب كناية تربي على افصاح، ولحظ يدل على ضمير، وإن كان ذلك الضمير بعيد الغاية، قائما على النهاية."[٢]

وقد تناول العلماء بلاغة الكناية ضمن ما ذكروه حول أثر علم البيان في تأدية المعاني، وذلك أنَّ معنًى واحدا يستطاع أداؤه بأساليبَ عديدة، وطرائق مختلفةٍ، وأنه قد يوضع في صورة رائعةٍ من صور التشبيه أو الاستعارة، أو المجاز المرسل، أو المجاز العقليِّ، أو الكناية.

وتحدث الجاحظ عن أمر آخر له علاقة وثيقة الصلة بالكناية وهي الإشارة وعدّها أحد أنواع البيان والتي حصرها في (اللفظ، والإشارة، والعقد، والخط والحال)[٣]، ويجعل الجاحظ الإشارة واللّفظ شريكان فهي معينة كاللّفظ مدعّية له، فكثيرا ما تنوب عن اللّفظ، كما يبرز أهميتها بين المتكلمين في قوله:

---

١ – البيان والتبيين ١/١٣٧ .

٢ – المرجع السابق ٢/٧ .

٣ – البيان والتبيين ١/١١ .

"وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح، مرفق كبير ومعونة حاضرة، في أمور يسترها بعض الناس من بعض..."[١]

ويشير أسامة بن منقذ في كتابه (البديع في نقد الشعر) إلى أن الفرق بين الكناية والإشارة، أن الإشارة إلى كل شيء حسن والكناية عن كل شيء قبيح، مثل قوله عز وجل: {فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ}[٢]، إشارة إلى عفافهن، وقوله -سبحانه-: {كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ}[٣]، كناية عن قضاء الحاجة، وقوله -تعالى-: {وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ}[٤]، إشارة إلى نساء كرام.[٥]

ويرى الجاحظ أنه على قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل، يكون إظهار المعنى. وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين.[٦]

---

١ – البيان والتبيين ٨٣/١ .

٢ – سورة الرحمن: ٥٦.

٣ – سورة المائدة: ٧٥.

٤ – سورة الواقعة: ٣٤.

٥ – البديع في نقد الشعر: أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني، تحقيق: أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الإدارة العامة للثقافة، سوريا، ص٩٩ .

٦ – البيان والتبيين ٨١/١ .

الخاتمة

تذكر الباحثة في ختام هذا البحث أن هناك الكثير من العوامل التي أسهمت في تكوين الفكر البلاغي للجاحظ ويرجع ذلك لثقافته، وحرصه على تلقي العلم على كبار العلماء بعصره، وفيما يلي أهم نتائج البحث وتوصياته، فمن النتائج:

- يعد كتاب البيان والتبيين خلاصة آراء الجاحظ الأدبية، وقد نثر فيه كثيرا من الآراء والأقوال والشواهد البلاغية الخاصة بعلم البيان.

- استطاع الجاحظ بحسّه المرهف وروحه العلمية و ذائقته الجمالية و البلاغية أن يدرك المفاهيم البلاغية التي ظهرت عند العرب في عصره والعصور السابقة له وتمثل ذلك في إيراده تلك الشواهد الكثيرة التي أوردها في علم البيان .

- لم يوافق الجاحظ علماء البلاغة في تعريفه لبعض مباحث علم البيان، ويرجع ذلك لعدم تقيده بالمفهوم الاصطلاحي المحدد لتلك المباحث، وربما كان لروح العصر الذي عاش فيه أثر في ذلك .

- لم يقم الجاحظ بتعريف التشبيه ولكن ما ذكره عنه يدل على اتفاقه مع تعريف جمهور العلماء له.

- المجاز في رأي الجاحظ هو عبارة نقل المعنى من معناه الأصلي إلى معنى بعيد لا يدرك إلا من وراء الألفاظ.

- أشار الجاحظ في تعريفه للاستعارة بأنها تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه.

- لم يعرّف الجاحظ الكناية لكن ما أورده من شواهد، تدل على أنه لا يخالف مذهب جمهور البلاغيين في تعريفها، وهي: إخفاء المعنى المقصود

وإظهار معنى آخر.

ومن توصيات البحث ما يأتي:

ـ العناية بدراسة وتحقيق تراث الجاحظ الأدبي والبلاغي المتمثل في مؤلفاته الأخرى .

. ضرورة إتباع هذه الدراسة بدراسات أخرى، تتناول جوانب علوم البلاغة الأخرى (البديع والمعاني) في كتاب البيان والتبيين.

والله الموفق

المصادر والمراجع

١/ أسرار البلاغة فى علم البيان : أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ- ٢٠٠١ م

٢/ الأعلام: خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين . بيروت . الطبعة العاشرة ١٩٩٢م .

٣/ الأنساب: أبو سعد عبد الكريم بن محمّد بن منصور السمعانى ، تحقيق عبد الله عمر البارودى ، دار الفكر . بيروت، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨ هـ.

٤/ الإيضاح في علوم البلاغة : جلال الدين محمد بن سعد الدين بن عمر القزويني، دار إحياء العلوم – بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٩٨م .

٥/ البديع في نقد الشعر: أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني، تحقيق: أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الإدارة العامة للثقافة، سوريا، د.ت.

٦/ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية – لبنان، صيدا، د.ت.

٧/ البلاغة العربية: عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي ، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت ، الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م .

٨/ بهجة المجالس وأنس المجالس: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي ، دار الكتب العلمية، د.ت.

٩/ البيان والتبيين : عمرو بن بحر بن محبوب الليثي، أبو عثمان، الشهير

بالجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.

١٠/ تاريخ بغداد بغداد : أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية ، بيروت.

١١/ التفكير البلاغي عند العرب ، أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة): حمادي صمو، منشورات الجامعة التونسية، تونس ١٩٨١م .

١٢/ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي، دار المعارف – القاهرة ، الطبعة الأولى، ١٩٦٥م .

١٣/ جمهرة الأمثال: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، دار الفكر – بيروت .

١٤/ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع : أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي ، ضبط وتدقيق وتوثيق: يوسف الصميلي ، المكتبة العصرية، بيروت، د.ت.

١٥/ الحيوان: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ ، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٤ هـ .

١٦/ زهر الآداب وثمر الألباب: إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري، أبو إسحاق الحُصري القيرواني ، دار الجيل، بيروت، د.ت.

١٧/ سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي ، دار الفكر ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، د.ت.

١٨/ سير أعلام النبلاء : أبو عبد الله محمّد بن أحمد بن عثمان الذهبى ،

تحقيق جماعة من العلماء بإشراف شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة . بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ .

١٩/ الصناعتين (الكتابة والشعر) : أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري . تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية – بيروت ، ١٤١٩ هـ .

٢٠/ الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز : يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ ، المكتبة العصرية – بيروت ، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ .

٢١/ العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، دار الكتاب اللبناني ١٩٨١م .

٢٢/ العمدة في محاسن الشعر : : الحسن بن رشيق القيرواني ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

٢٣/ الفهرست : محمد بن إسحاق بن النديم ، دار المعرفة ، بيروت ١٩٧٨م .

٢٤/ لسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٠م .

٢٥/ معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب): شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ- ١٩٩٣ م.

٢٦/ معجم المطبوعات العربية والمعربة : يوسف أليان سركيس ، دار الفكر، بيروت ، د.ت.

٢٧/ الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري : أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف ، مصر، د.ت.
٢٨/ نزهة الألباب في الألقاب : أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني ، تحقيق: عبد العزيز محمد بن صالح السديري ، مكتبة الرشد – الرياض ، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م .
٢٩/ النّظريات اللّسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ : محمد صغير بناني ، ديوان المطبوعات الجامعية ،١٩٩٤م .
٣٠/ هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين : إسماعيل باشا البغداد ، دار العلوم الحديثة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨١م .
٣١/ الوساطه بين المتنبي وخصومه ونقد شعره : أبو الحسن علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني ، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه .
٣٢/ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت .